الفصل الثالث

الاسلام والعالم

- ٣ -

ماجناه العالم من الاسلام

بقلم الاستاذ عبد الرزاق العايش

من اغرب مانشهده اليوم ان عقلاء الغربيين يعترفون بما لحضارة الشرق من فضل على حضارتهم التي ينعمون بها وان بيننا من ينكر ذلك ، بل ربما دفع الغلو ببعضنا الى التنقص من اسلافه والاستخفاف بكل ماهو شرقي

نعم ان التمدن الاوربي تمت مباديه حوالي القرن الخامس عشر واخذ بالازدياد بعد اختراع فن الطباعة ، وهذه سنة من سنن الترقي التدريجي بين الامم لاتكون حجة على ان التمدن الاوربي انما قام بنفسه لابواسطة اخرى هي - الاسلام - اذ ان من الأمور الثابتة البديهية التي لاتحتاج الى اخذ ورد ان التمدن الاسلامي علة التمدن الاوربي ، والواسطة بينه وبين التمدن الروماني الناقص الذي كان على وشك الزوال بانحلال دولة الرومان الغربية - ماديا - والشرقية - معنونا - ولولا الاسلام لكان العالم كما كان بشهادة الثقات من مؤرخي الاوربيين انفسهم ، الذين اقروا بان الغربيين عيال في تمدنهم على المسلمين وان التمدن الاسلامي أفاد العالم اجمع لااوربا وحدها .

ونظراً لضيق المجال لايسعنا مد النظر الى مكاتب اوربا وتواريخها للنظر والتنقيب عن الكتب العربية المترجمة من بضعة قرون الى اللغات الاوربية .بل اكتفي بالنقل عن تأريخ واحد . . . وهو للبحاثة سرپو الذي افرد تأليفاً مخصوصاً في تمدن العرب وعلومهم ، استطرد فيه الى ذكر بعض ماترجم من كتبهم ودرس قروناً طويلة في اوربا ؛ سماه خلاصة تأريخ العرب وقد ترجم كتابه هذا في مصر مرتين وطبع كذلك وكانت ترجمته الثانية بامر المرحوم فقيدمصر - علي باشامبارك - وهاهي بعض المقتطفات من الكتاب المذكور :

١ — الشريعة

قال ذلك المؤرخ في معرض كلامه عن الشريعه الاسلامية و كتبها ومامنف فيها « وقد جمع المؤلفات العديده مختصر خليل ابن اسحق بن يعقوب المتوفي سنة ١٤٢٢م فكان احسن كتاب ترجمه برون الى اللغة الفرنسية وترجمه الى اللغة الانكليزيه كتابان الاول الهداية الفه برهان الدين سنة ١١٨٠ م والثاني مشكاة المصابيح جمع فيه اصح الروايات ابو عبد الله محمود سنه ١٣٣٦ م على حسب مااعتمده العالم الجليل حسين الذي اشتهر في بغداد سنة ١٢٢٠ م »

٢ — الطب

وقال في معرض كلامه عن الطب عند المسلمين وماحصل فيه من الترقي خصوصاً فن الجراحة وذكر من اشتهر من اطباء المسلمين ومؤلفيهم في الطب « والرازي اهدى الى المنصور حاكم خراسان في القرن العاشر من الميلاد عشرة كتب حسنة الترتيب والاسلوب طبعت في مدينة - وندبق - سنة ١٥١٠ م وعلي بن عباس الفارسي الف في الطب كتابا عشرين مجلداعشرة في قواعد الطب وعشرة في عملياته ؛ سماه الملكي واهداه الى السلطان عضد الدولة البويهي ، ترجمه الى اللاتينيه اصطفان الانطاكي سنة ١١٢٧ م وطبعه ميخائيل كابلا سنة ١٥٣٣ م في مدينة نيون - بفرنسا - وقال عن ابن سيناء « انه الف كتبا من اجل المؤلفات منها القوانين . وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي تدرس بمدارس اوربا نحو ستة قرون »

٣ الفلك

وقال في معرض كلامه عن علم الفلك عند المسلمين ومابلغه من الترقي وما اقاموه من المراصد واتقنوه من الازياج ومن اشتهر منهم في التأليف بهذا الفن « منهم جابر بن افلح الف رسالة ترجمها جيرار الكريموني الى اللغة اللاتينية »

٤ — الجغرافيا

وقال في معرض كلامه عن الجغرافيا واكتشافات المسلمين في سائر انحاء العالم وذكر من الف فيها « وخدم الادريسي من القرن الحادي عشر روجير ملك سيسليا فصنع له

من الفضة لوحا مستديراً زنته ثمانمائة وطل افرنجي ، وحفر فيه باللغة العربية كل ما عرفه من ممالك الدنيا ؛ والف في الجغرافيا رسالة لبث رسامو الخرائط الجغرافية من الفرنج ثلاثة قرون ونصف مقتصرين على نقلها ولم يزيدوا عليها وترجم كتابه الخواجا ـ يوبرت سنة ١٢٢٥ م »

وهكذا ذكر ذلك المؤرخ المشهور كل العلوم التي اشتغل بها المسلمون ؛ وماترجم منها الى اللغات الاوربية بما فيها ـ الطبيعيات ، والرياضيات ، وقد اطنب كثيراً في مدح العرب وعدد معظم مؤلفاتهم وماترجم منها مما لايسعني ايراده في هذه النظرة العابرة واني اكتفي بما تقدم دلالة على الباقي

٥ ـ التجارة

يسرني ان اذكر بعض الاقوال المأثورة عن هذه المهنة الشريفه قال الله تعالى في محكم كتابه (ياايها الذين آمنوا لاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم) وقال النبي محمد (ص) (ان اطيب الكسب كسب التجار الذين اذا حدثوا لم يكذبوا ، واذا اؤتمنوا لم يخونوا ؛ واذا اشتروا لم يذموا ، واذا باعوا لم يمدحوا ، واذا كان عليهم لم يمطلوا ، واذا كان لهم لم يعسروا)

وقال الخليفة الثاني (رض) « لايقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم ان السماء لاتمطر ذهباً ولافضة » ـ وقال ايضاً : ماميتة بعد القتل في سبيل الله احب الى من ان اموت بين شعبتي رحلي اضرب في الارض وابتغي من فضل الله » وقال الامام علي بن ابي طالب (ع) « تفقه ثم اتجر فان التاجر فاجر الا من اخذ الحق واعطاه » وكان عليه السلام يدور في اسواق الكوفة ويقول : (معاشر التجار خذوا الحق واعطوا الحق تسلموا . لاتردوا قليل الربح فتحرموا كثيره) .

وكان للخلفاء الراشدين والصحابة ومن والاهم اعمال تجارية ونحوها . فكان ابوبكر الصديق بزازاً ومثله كل من عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر بن الخطاب دلالا ، وعبدالله ابن جدعان نخاساً ، وثابت بن قرة صيرفياً وكثير غير هؤلاء كانوا كذلك .

وهذا مما يدلنا على عناية المسلمين بالتجارة ، والحرص على تعاطيها بالطرق المشروعة . وفي اثناء الحروب الصليبية جاء تجار الضرع وشيدوا الفنادق وانشأوا المشابات (البورصات) للبحث في شؤون التجارة ، وحملوا البضائع الشرقية الى بلادهم كما نقلوا بضائع بلادهم الى بلادنا . وكانت لهم محلات يختلفون اليها اشبه بالبورصات الآن للتداول بالشؤون التجارية ولخزن البضائع ولنزول المسافرين . وهكذا كان تجار المسلمين يقيمون في اماكن خاصة فيشترون ويبيعون ويعودون الى اوطانهم بدون معارضه لتساهل ملوك المتحاربين وقواد جيوشهم ، بذلك انماء للثروة وانعاشاً للبلاد المضطربة بالحروب .

هذا ما اجيز لنفسي بيانه مراعاة للشرط المتقدم ، اذ لم يكن قصدي من هذا كله التبجح بما كان يتمتع به اسلافنا من مجد خالد وشهرة ذائعة الصيت .. بل انما قصدت الوقوف على معرفه العامل الاساسي لنهضة الاسلام وامتداد سلطانه باقل من ثمانين سنة الى ما لم يمتد اليه سلطان دولة في عدة قرون ، ومنه تتضح لنا علة هذا التقلص المريع .

الفصل الرابع : العامل الرئيسي لسرعة ترقي دولة الاسلام

ان سرعة ترقي دولة الاسلام ومجاراتها في الحضارة لدولتي الفرس والرومان علة اجتماع الامة العربية ـ قبل اندفاعها للفتح ـ على كتاب الله الكريم ، وقانون الاسلام الجامع لسائر مطالب الحياة الاجتماعية . ووقوفها منه على كل ما تحتاج اليه الامم في وجودها المدني ، مما اغناها عن صرف الزمن الطويل في وضع وترتيب النظامات والروابط التي تتكفل بقوة دولتها ؛ وتعزيز صولتها في الارض .

فلاتقاس عليها اي امة من الامم الفاتحة في تلك العصور فان ماجاء به القرآن الكريم من تعاليم رفيعة يعجز عن تحديدها ويكل عن وصفها البيان ويقصر عن تصورها الخيال وعلى الاخص التعاليم الاجتماعية ، فمن آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا) الى اية (ياايها الذين امنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، ان بعض الظن اثم ؛ ولاتجسسو ولايغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه) . الى آية (تعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان) الى

ابو العلاء المعري

شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء

— ٢ —

بقلم الاستاذ شمس الدين الخطيب

فساد الاوضاع في عصره :

لفساد الحياة الاجتماعية اثر كبير في فساد الحياة الخلقية فاذا فسدت الحياة الاجتماعية فسدت الحياة الخلقية هي ايضاً والمطلع على آداب عصر ابي العلاء يعرف حق المعرفة الفرق العظيم بين الفضيلة وبين اخلاق ذلك العصر . فلا يجد فيه اكثر من الادب المكشوف الذي ان دل على شيء فانما يدل على انحطاط الاخلاق وترديها . حيث تنجسم الدعارة وقبح المجون ومن شاء الوقوف على ذلك فما عليه الا ان يرجع الى كتاب يتيمة الدهر للثعالبي تفيه مقنع . كما فشى في الناس في ذلك العصر خلق المكر والخداع والغدر والنفاق والحذر والاحتراس والكذب والوشاية والانانية المقيتة وحب النفس كل اولئك انما كان نتيجة لازمة لفساد الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ومنه يظهر لك السر في اعتزال ابي العلاء اهل عصره وابتعاده عنهم وتشنيعه عليهم .

ازدهار الحياة العقلية في عصره

بلغت الحياة العقلية في هذا العصر اوج عظمتها ورفعتها فقد كانت هذه تسير سيراً عكسياً مع الحياه السياسية والاجتماعيه فعلى قدر انحطاط تينك الحياتين كان رقي هذه الاخيرة . اما سبب رقي الحياة العقليه في ذلك العصر فهو ان هذا العصر كان قد

غير هذه الايات الكريمة الدالة دلالة واضحة على ان التعاون شرط من شروط الاسلام المهمة ، وان الدين الاسلامي هو دين اجتماعي ، ومنه عرفت شروط الوحدة الكاملة .

هذه الاية السابعة والسبعين بعد المئة من سورة البقرة تعطينا خير درس يغنينا عن مئات القواعد الاجتماعية

قال سبحانه : (ليس البران تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من اتقى وآمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ، والنبيين ، وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وهذه آيات من الايات الكريمة تحط الانانية من عليائها وتحطمها تحطيما كي لايشمخ رئيس على مرؤوس بانفه ، ويستعبد القوى الضعيف قال تعالى (ياايها الناس انا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وهذه الاية الرابعة عشر من سورة الروم جمعت مافي محاسن الاخلاق من معنى الكلمة . حيث قال عز من قائل (ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم)

بفضل هذه التعاليم السامية الرفيعة تمكن المسلمون من تكوين وحدة قومية مبنية على اسس ثابتة غير قابلة للتصدع والانهيار . ومما لامشاحة فيه لواننا اخذنا بعين الاعتبار ماانحطه لنا مرشدنا الاعظم (ص) من خطط ابان انا فيها سبل النجاة والنجاح ؛ واوضح مافيه صلاحنا واصلاحنا .. لكنا (خير امة اخرجت للناس) لكن — ويالاسف — اصبحنا من جراء اهمالنا هذه التعاليم الرفيعة وتثبطنا عن الاخذ باوامرها .. اصبحنا ينطبق علينا قوله تعالى في سورة الحشر (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) بينما كان الاولى لنا ان ينطبق علينا قوله سبحانه في سورة الصف (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كانهم بنيان مرصوص)

والانكا من هذا اذا عثرنا على كتاب اجتماعي لاحد الغربيين اخذنا نكيل لمؤلفه آيات التقدير والاعجاب ويوصي احدنا الآخر باقتنائه . وقد يغالي في مدحه فيقول انه احسن كتاب اجتماعي في حين لايعرف من الاجتماع والمجتمع سوى اللفظ ، ولو كان حقيقة يريد الوقوف على معرفة شروط الاجتماع لما توانى عن تلاوة القرآن الكريم واقتناء بعض التفاسير ليستعين بها على مالم تتسنى له معرفته من شروط الاجتماع وقواعد المجتمع .

الخلاصة لولم يفد الاسلام العالم بسوى تعاليم القرآن الاجتماعية لكفى .

البصره — عبد الرزاق العائش